"ملاحظين لئلَّا يخيبَ أحدٌ من نعمة الله..."[1]

(عبرانيِّين ١٢: ١٥)

تمهيد

بدأتُ في تأليف كتابٍ عن حالة النعمة المعرَّضة للخطر وانتهى بي الأمر إلى كتابة أربعةِ كتبٍ قصيرة مرتبطة معًا ويجمعها غلافٌ واحدٌ.

بدأتُ وأنا قَلِقٌ من أن تفشل الكنيسة في إرساليَّتها لتقديم النعمة إلى عالمٍ متعطِّشٍ إلى تلك النعمة. وتبيَّن الدراسات المسحيَّة أكثر فأكثر أنَّ مَن هم خارج الكنيسة ينظرون إلى المسيحيِّين على أنَّهم يحملون أخبارًا سيِّئة لا الأخبارَ السارَّة (الجزء الأوَّل).

بعد ذلك، بحثتُ عن نماذج لنعرفَ الكيفيَّة التي يمكنُنا بها أن ننفِّذَ هذه المهمَّة بصورةٍ أفضل، فاستقرَّ بي الأمر على ثلاثة نماذج: الحجَّاج والنشطاء والفنَّانين. ويمكننا جميعًا أن نتعلَّم منهم عن أفضل السُّبُل لإيصال الرسالة إلى ثقافةٍ تنفرُ مبتعدةً من الإيمان (الجزء الثاني).

ثمَّ شعرتُ بالحاجة لأن أعودَ إلى الوراء وأطرحَ سؤالًا ربَّما يسلِّم المسيحيُّون الحقيقيُّون بصحَّته: هل الإنجيل هو حقًّا الأخبار السارَّة؟ وإن كان كذلك، فكيف يصمدُ في ضَوء البدائل التي يقدِّمها العلم وبدعة العصر الجديد (New Age) والمعتقدات الأُخرى؟ (الجزء الثالث).

أخيرًا، عدتُ بإيجاز إلى إحدى عقبات الإيمان الرئيسيَّة، وهي الدور المربِك للمسيحيِّين في عالمٍ باتَ التنوُّع سمةً أساسيَّة فيه. فيرى كثيرون أنَّ انغماسَ المسيحيِّين الحقيقيِّين في السياسة حجب رسالتنا، أي الأخبار السارَّة، عن الجميع.

فكيف يمكننا أن نتجنَّب رفضَ الآخرين لنا حيث يرَون أنَّنا مجموعةُ ضغطٍ أُخرى؟ (الجزء الرابع).

وللأجزاء الأربعة جذورها في كتابٍ لي نُشِرَ قبل نحو عشرين عامًا بعنوان: "**ما أعجب النعمة**" *(What's So Amazing About Grace?)*. وحال النعمة هي مثل انصهار الثلج المفاجئ في منتصف الشتاء، إذ تحدثُ في لحظات غير متوقَّعة. إنَّنا نقفُ أمامها حائرين ونلتقط أنفاسنا دهشةً منها، ونشعرُ أمامها بالعجز. وإذا حاولنا استغلالها أو السيطرة عليها أو كسبها بطريقةٍ ما، فإنَّها لن تكونَ عندئذٍ نعمة. ومع ذلك، لم يتذوَّق الجميع تلك النعمة المدهشة، ولا يؤمن جميع الناس بها.

في أوقات الانقسامات والنزاعات، تبدو الحاجة إلى النعمة كبيرة، وليس مَن يزوِّدها. لماذا؟ وماذا يمكنُنا أن نفعلَ حِيالَ ذلك؟

الجزء الأوَّل

عالمٌ متعطِّشٌ

في رواية "المجيء الثاني" *(The Second Coming)*، جاء على لسان إحدى شخصيَّات ووكر بيرسي (Walker Percy)، في كلامها عن المسيحيِّين: "لا أقدر أن أكون على يقينٍ أنَّهم لا يملكون الحقّ. لكنْ إذا كان لديهم الحقّ، فلماذا إذًا كلَّما تبعوا الحقَّ ونادوا به، أدَّى ذلك إلى نفور الناس منهم؟ إنَّه لَسِرّ: إذا كانت الأخبار السارَّة صحيحة، فلماذا لا يُسَرُّ المرء بسماعها؟".[٢]

١

انقسامٌ كبير

"أرى أنَّ الكنائس عمومًا تُظهرُ العلاقة بالله كعلاقةِ
الإعلانات بمشروب كوكا كولا: فهي تروِّج
لإرواء العطش، لكنَّها لا ترويه".[١]
جون أپدايك، "شهرٌ من الآحاد"
(A Month of Sundays), John Updike

بوصفي مؤمنًا بالمسيح، ينتابني هاجسٌ عميقٌ يتعلَّق بالكيفيَّة التي ينبغي أن يُظهرَ بها المسيحيُّون إيمانَهم للآخرين. لقد دُعينا لنكرزَ بالأخبار السارَّة عن الغفران والرجاء، ومع ذلك أواجه باستمرار أدلَّة تبيِّن أنَّ كثيرًا من الناس لا يرَونَ أنَّ رسالتَنا هي أخبارٌ سارَّة.

قرَّرتُ تأليفَ هذا الكتاب بعدما رأيتُ نتائجَ الدراسات المسحيَّة التي أجرتها مجموعة جورج بارنا (George Barna). فقد برزتْ في هذه الدراسات بضع إحصائيَّات[٢] بوُضوح لا يخفى على أحد. في عام ١٩٩٦م، كان ٨٥٪ من الأميركيِّين غير الملتزمين دينيًّا، لا يزالون ينظرون إلى المسيحيَّة نظرة إيجابيَّة. لكن بعد ثلاثة عشر عامًا، أي في عام ٢٠٠٩م، صار لدى ١٦٪ فقط من الشباب ممَّن هم "خارج الكنيسة" (Outsiders) انطباعٌ حسَنٌ عن المسيحيَّة، و٣٪ فقط حملوا انطباعًا جيِّدًا عن المتديِّنين.* أردتُ أن أستكشفَ ما تسبَّب في هذا الهبوط الهائل في وقتٍ قصير

* المصادر والآيات من الكتاب المقدَّس، مُدرَجةٌ في نهاية الكتاب.

نسبيًّا مثل هذا. لماذا يُثير المسيحيُّون مشاعر عدائيَّة؟ وما الذي ينبغي أن نفعله في هذا الشأن، إنْ كان هناك ما يمكن عمله؟

على مدى أكثر من عقدٍ من الزمن، كنتُ أتابعُ باستمرارٍ الكيفيَّة التي ينظر بها العالم العَلمانيُّ الحديث إلى المسيحيِّين، وذلك بواسطة مجموعة قراءةٍ كنتُ أنتمي إليها. وتضمُّ هذه المجموعة قرَّاءً واسعي الاطِّلاع، ومنهم مَن جابَ العالم. كان بينهم مناصرًا للبيئة، وفيلسوفًا طُرِدَ من جامعة حكوميَّة بسبب آرائه الماركسيَّة، وخبيرًا في تنمية الطفل، وباحثًا في علم العقاقير، ومدقِّقَ حساباتٍ في الماليَّة العامَّة، ومحاميًا مختصًّا بقضايا الإفلاس، وأمينَ مكتبة، وطبيبَ أمراضٍ عصبيَّة. وكانت مهنُنا وخلفيَّاتنا المتنوِّعة تجعلُ النقاشَ حيويًّا.

بعد التنقُّل بين الأفكار التي أثارها كتابٌ ما كنَّا قد انتهينا لتوِّنا من قراءته، يتحوَّل الحديث عادةً إلى السياسة- نوعٌ من الديانة البديلة، كما يبدو. وكان الجميع في تلك المجموعة يميلون إلى اليسار السياسيّ، ما عدا أحدهم، الذي كان شخصًا ليبراليًّا يعارضُ كلَّ أنواع الحكومات تقريبًا. كانت المجموعة تنظرُ إليَّ على أنِّي مصدرُ معلومات عن عالمٍ موازٍ موجودٍ ما وراء مدارهم الاجتماعيّ. "أنت تعرف المتديِّنين، أليس كذلك؟" أومئ برأسي موافقًا. ثمَّ يأتي سؤالٌ من قبيل: "أيمكنك أن تشرح لنا لماذا يعارضون زواج المثليِّين جنسيًّا؟" وكنتُ أُجيب عندها بأفضل ما يسعُني، لكنَّ الحجج التي كنتُ أنقلها من المتديِّنين البارزين لم تكن تعني شيئًا لهذه المجموعة.

بعد إعادة انتخاب جورج دبليو. بوش (George W. Bush) في عام ٢٠٠٤م، شنَّ البروفيسور الماركسيُّ- في خطبةٍ عصماء- هجومًا لاذعًا على المتديِّنين اليمينيِّين. قال: "إنَّ دافعَهم هو الكراهية- الكراهية المحضة!" اقترحتُ أنا كونَ احتمال أن يكونَ الخوفُ دافعًا بديلًا- الخوف من المجتمع الذي يميل إلى ما يحسبُه المحافظون اتِّجاهًا مقلِقًا. لكنَّه أصرَّ قائلًا: "كلَّا، بل الكراهية!" ورفع صوتَه على نحوٍ غير معهود، وتدفَّقَ الدم إلى وجهه.

سألتُه: "أتعرف شخصيًّا أيًّا من الإنجيليِّين اليمينيِّين؟".

أقرَّ ببعض الخجل: "كلَّا في الحقيقة"، لكنَّه قال إنَّه عرفَ كثيرين منهم في شبابه. ومثله مثل معظم الموجودين في مجموعة الكتاب التي أنتمي إليها، فقد نشأ في الكنيسة، في حالته، بين أفراد طائفة السبتيِّين.

علَّمتني أحاديث كثيرة مشابهة أنَّ الدِّين يمثِّل تهديدًا كبيرًا للَّذين يحسبون أنفسهم أقلِّيَّة من اللَّاأدريِّين في أرض الإيمان. ويميل غير المؤمنين إلى حسبان الإنجيليِّين فيلقًا من شرطة الأخلاق المصمِّمين على فرض رأيهم على الآخرين في ما يخصُّ السلوك السويّ. وهم يرونَ أنَّ المسيحيِّين يعارضون الإجهاض والمثليِّين جنسيًّا والمرأة- وربَّما هم يعارضون الجنس- ومعظمهم يدرِّسون أطفالهم في البيت (Homeschooling) لتجنُّب تعرُّض أولئك الأطفال للفساد الأخلاقيّ. وأحيانًا، يساعد المسيحيُّون على حلِّ المشكلات الاجتماعيَّة، مثل إدارة مطابخ تقديم الطعام، وملاجئ المشرَّدين، لكن في ما عدا ذلك، فهم لا يختلفون كثيرًا عن المتطرِّفين في الأديان الأخرى الذين يريدون فرضَ شريعتهم على مجتمعاتهم.

أُصيبت مجموعةُ بحوثٍ مقرَّها في فينكس (Phoenix) بالدهشة عندما واجهت مقدارَ الإساءة الموجَّهة نحو المسيحيِّين، حيثُ تخطَّت العداوة كثيرًا مسألةَ الاختلاف في الرأي بشأن قضايا معيَّنة. وبحسب رئيس الشركة، "أُطلقَت على المسيحيِّين صفات مثل: أُمِّيِّين، وجَشِعين، مضطربين عقليًّا، وعنصريِّين، وأغبياء، وضيِّقي التفكير، ومتعصِّبين، وحمقى، ومتطرِّفين، وغريبي الأطوار، ومخبولين، ومضلِّلين، ومغفَّلين، ومغرورين، ومتخلِّفين عقليًّا، وقساة القلوب، وبلهاء، وغير منطقيِّين- وهذا ليس سوى جزء من القائمة كلِّها[٣]... ولا يملك بعض الناس أيَّة فكرة عمَّن هم الإنجيليُّون في الواقع أو ما يؤمنون به؛ فجُلَّ ما يعرفونه هو أنَّهم لا يستطيعون احتمالَ الإنجيليِّين".

لا يبدو أنَّ الأخبار السارَّة سارَّةٌ كثيرًا في هذه الأيَّام، على الأقلِّ لدى البعض.

رائحةٌ مختلَطة

في استعارةٍ لغويَّة ذكيَّة، يكتب الرسول بولس عن "رائحة المسيح" التي لها تأثيرٌ يختلفُ بحسب الأنف: "لهؤلاء رائحة موتٍ لموتٍ ولأولئك رائحة حياةٍ لحياة".[٤] وبصفتي صحافيًّا، أنطلقُ في مهمَّات إلى أمكنة حيث تفوح من المؤمنين بالمسيح رائحةٌ عَطِرة، وإلى أمكنةٍ حيث تزكمُ رائحتُهم الأُنوف.

تشهدُ الولايات المتَّحدة تغييرًا ملحوظًا في موقفها من الدِّين، ويواجه المؤمنون بالمسيح هنا تحدِّيات جديدة. فعندما كتب مدوِّن إلكترونيٌّ يُدعى مارك يودر (Marc Yoder) مقالةً بعنوان: "١٠ أسباب مفاجِئة تجعل أولادنا يتركون الكنيسة"[٥]، استنادًا إلى مقابلاتٍ جرت في تكساس (وهي نسبيًّا ولاية متديِّنة)، صارت مدوَّنتُه رائجةً وسريعة الانتشار. وبدلًا من مئة نقرة أو نحو ذلك، تلقَّتِ المدوَّنة أكثر من نصف مليون نقرة. وكان يودر قد كتبَ كلماتٍ مسَّتْ وترًا حسَّاسًا: "لا توجد طريقةٌ سهلة لقَول هذا: الكنيسة الإنجيليَّة الأميركيَّة خسرت شبابَنا وتخسرهم، وأكاد أجزمُ أنَّها ستستمرُّ في خسارتهم".[†] إنْ لم نتكيَّف، فسينتهي بنا الأمر إلى التحدُّث إلى أنفسنا في أعدادٍ تتضاءل أكثر من أيِّ وقتٍ مضى.

ما السبب الحقيقيُّ الكامن وراء هذا الاتِّجاه نحو الانحدار؟ حصلتُ على بعض الأفكار من صديقٍ لي في شيكاغو كان يعمل يومًا ضمن العاملين في كنيسة ويلو كريك كوميونيتي (Willow Creek Community Church)، وهي إحدى أكبر الكنائس في الولاية. حصل دانيال هِل (Daniel Hill) على وظيفة بدوام جزئيٍّ في إعداد القهوة وتقديمها في مقهى ستاربكس (Starbucks)، حيث بدأ هناك فعلًا، كما يُدرك هو الآن، تعليمَه الرعويّ.

قال أحد الزبائن عندما تحوَّل الحديث إلى الدِّين: "عندما يتحدَّث إليك المؤمنون بالمسيح، فإنَّهم يتصرَّفون كما لو كنتَ إنسانًا آليًّا. إنَّ لديهم أجندةً يروِّجونها، وإذا لم

† وفقًا لاستطلاعات بارنا، واظب ٦١٪ من شباب اليوم على الذهاب إلى الكنيسة في مدَّة ما من مراهقتهم، لكنَّهم هجروها الآن.[٦]

تتَّفق مع ما يقولونه، فإنَّهم يتوقَّفون عن التحدُّث إليك".[٧] كثيرًا ما كان هِل يشهدُ موقفًا لا ضوابط فيه: "أنا شخصيًّا لا أومنُ بالمسيحيَّة. واعتقادي هو أن تفعلَ ما يشعركَ بالرِّضى". وقد أخبره أحد الأشخاص: "انظر، نحن جميعًا نعرف أنَّ «الله» موجودٌ هناك في أحد المستويات، لكنْ لا أحد يملك حقَّ أن يخبر شخصًا آخر بطبيعة «الله» وَفقَ اعتقاده. لكلِّ شخصٍ الحرِّيَّة في التعبير عن ذلك كيفما شاء، لكنَّ عليه أن يحتفظ بآرائه لنفسه".

في أثناء وجود هِل في المقهى، سمع طريقتَين متميِّزتَين للإيمان. بدا "الأشخاص المنفتحون على المسيحيَّة" (Pre-Christians) متقبِّلين عندما كان يُثارُ مَوضوع الدِّين، ولم يكنُّوا عداءً حقيقيًّا. وكان في وُسعهم أن يتخيَّلوا أنفسهم يتواصلون مع كنيسةٍ ما في يومٍ من الأيَّام. في المقابل، كان "الذين هجروا الإيمان" (Post-Christians) يُضمرون مشاعرَ سيِّئة. كان بعضهم يحتفظ بذكرياتٍ عن جروحٍ سابقة: انقسام في الكنيسة، والدٌ مستَبدّ، قائد شبابٍ أو كاهن مذنبٌ بالإساءة الجنسيَّة، طلاقٌ كريه تعاملت الكنيسة معه بغباء. وتشرَّب البعض الآخر صور الإعلام النمطيَّة السلبيَّة عن الأصوليِّين، وعن مبشِّري التلفاز المعرَّضين للفضائح.

عند سماعي قصص هِل، عدتُ بتفكيري إلى التشابه بين ما قالَه هو، وما كتبَه سي. أس. لِويس (C. S. Lewis)[٨] حول توصيل الإيمان إلى الآخرين في بريطانيا العَلمانيَّة، حيث يقول لِويس في رسالةٍ إلى صديقه إنَّه الفرق بين التودُّد إلى مطلَّقة والتودُّد إلى عذراء، فالمطلَّقةُ لن تنخدعَ بسهولةٍ بكلماتِ الحبِّ الصادرة عن المتودِّد– فقد سبق أن سمعتها كلَّها– ولديها مشاعر ارتياب أساسيَّة بعلاقة الحبّ. وكما يُقدِّر هِل، فإنَّ في أميركا الحديثة نحو ثلاثة أرباع الشباب الذين هم "من خارج الكنيسة" يُؤهَّلون ليكونوا "أفرادًا هجروا المسيحيَّة"– هُم من "مطلَّقي" الإيمان.

دون شكّ، لا يمكن تصنيف كلِّ شخص في فئةٍ دقيقة، لكنِّي أجد أنَّ منظور دانيال هِل مفيد. وبدأت أفكِّر في التدقيق في اتِّصالاتي الخاصَّة بالأشخاص غير

الملتزمين دينيًّا. وحيث إنِّي أقمتُ في مدينة هِل في شيكاغو، كان عليَّ أن أتَّفق مع تقييمه للسكَّان الشباب. لم يكن أحد من الساكنين في المبنى الذي نقطن فيه، والمؤلَّف من ستِّ شقق، يحضر الكنيسة، وكان معظمهم ينظرون إلى المؤمنين بالمسيح بارتياب. كما أنَّه يمكن تصنيف بعض أصدقائي في مجموعة القراءة في كولورادو في فئة الذين "هجروا الإيمان".

من جهةٍ أُخرى، لا تزال أجزاءٌ كبيرة من الجنوب والوسط الغربيِّ الأميركيِّ منفتحةً على الإيمان، ويتأهَّل الناسُ فيها ليكونوا "أشخاصًا منفتحين على المسيحيَّة". لقد نشأتُ في الجنوب المتشرِّب من الدِّين، وخلال الزيارات التي كنتُ أعود فيها إلى تلك المنطقة، كنتُ أُدهَشُ دَومًا من الاختلاف في المواقف تُجاه الدِّين هناك. تَقبَلُ منطقةُ "حزام الكتاب المقدَّس" (Bible Belt) إطارَ الإنجيل إلى حدٍّ كبير. وهناك إله (أليس مكتوبًا على عملتنا أنَّنا "بالله نثق" [In God We Trust]؟)؛ ونحن قد أخطأنا (وتُطلقُ موسيقانا الشعبيَّة تفاصيل شهوانيَّة)؛ ويسوع يقدِّم إلينا سبيلًا لغفران تلك الخطايا (لا يزال في وُسعك أن ترى شعارات "تُبْ" أو "يسوع يخلِّص" على بعض مخازن الحبوب أو لوحات الإعلانات). جرِّب أن تبحث عن إذاعاتٍ في مذياع سيَّارتك بينما تقودها في الجنوب، وستجد أنَّ هناك فرصةً جيِّدة لسماع شهادة من شخصٍ ما يسرد قصَّة حياته العاصية السابقة، وأنَّه الآن تغيَّر بواسطة الإيمان بالمسيح.

خلال رحلاتي إلى أمكنة أخرى أيضًا- أفريقيا، وأميركا اللاتينيَّة، وأجزاء من آسيا- أرى الدعوة إلى الرسالة المسيحيَّة الأساسيَّة. ويربط الناس هناك المسيحيِّين بالمُرسَلين الذين أتوا إليهم بصفة رعاة كنائس ومعلِّمين وأطبَّاء وممرِّضين وممرَّضات وخبراء زراعيِّين وعمَّال إغاثة. ويُجيب الإنجيل عن أسئلةٍ مهمَّة، ويقدِّم وعدَ الحياة بعد الموت، ويمنح دعمًا جماعيًّا لمن يحتاجون إليه. ولا يزالُ الإنجيل لكثيرين في العالم هو أخبارًا سارَّة- قصَّة سارَّة تزيلُ التعويذة المظلمة التي تُلقي بظلالها على الكثير من أمور الحياة.

عندما كنتُ أعود من هذه الرحلات، كنتُ أُصدَمُ عندما يتكلَّم الناس في بلدي عن المسيحيِّين بطريقةٍ شرِّيرةٍ ومتشائمة. يستمع "الذين هجروا الإيمان" إلى الموسيقا ذاتها كما لو أنَّها تشوَّهت بسبب تشقُّق السمَّاعات. والكارزون الذين يتحدَّثون بشأن الخطيَّة يعطون انطباعًا أنَّهم سيِّئو الطِّباع ويُرهبون الآخرين. "ما الذي يمنحهم الحقَّ في الحكم على سلوكي، لا سيَّما أنَّ كثيرين منهم عابثون بحياتهم؟" وتبدو العقائد، مثل الثالوث والكفارة والخطيَّة الأصليَّة وجهنَّم، محيِّرة ومربِكة، بل حتَّى مُبهَمة. ومَن يملك حقَّ ادِّعاء أنَّ لديه وحدَه الحقّ؟ إنَّ الذين يعيشون في دولٍ مزدهرة، والمصمِّمون على التمتُّع بهذه الحياة، يُعيرون القليل من الأهمِّيَّة لفكرة الحياة بعد الموت. ويلومُ الملحدون الجُدد كلَّ الأديان حاسبين إيَّاها أخبارًا سيِّئة ومصدرًا رئيسيًّا للتعصُّب والحروب- دعا أحدُهم الأعمال الوحشيَّة التي وقعت في ١١ أيلول /سبتمبر "مبادرة مبنيَّة على الإيمان"- وهم يتوقون إلى اليوم الذي لا تكون فيه الكائنات البشريَّة أخيرًا في حاجةٍ إلى الدِّين.

في أوروبا، وهي مركز الإيمان المسيحيِّ في معظم تاريخها، لا يكترثُ كثيرون بالأمر. وفي الاستطلاعات، بالكاد يؤمن ثلثُ المستجيبين من الفرنسيِّين والإنكليز بأنَّ الله موجود. عندما كنتُ في زيارة إلى فرنسا، تحدَّثتُ إلى أحد العاملين في منظمة كامپس كروسيد (Campus Crusade) التي تخدم بين الجامعيِّين، وكان قد مارس الكرازة في فلوريدا قبل أن ينتقل إلى أوروبا. كان يحمل لوحًا صغيرًا لتسجيل الملاحظات، ويتقدَّم نحو الغرباء ويسأل: "إذا متَّ اليوم، وسألك الله عن السبب الذي يسمح لك بدخول السماء، فماذا تقول؟" حصلَ هذا الأسلوب على نتائج مختلطة في فلوريدا، لكنَّه كان يواجَه في فرنسا بنظرات عدم الاكتراث، كان كمن يتحدَّث اللغة الهنديَّة. واليوم هو يبدأ بسؤال: "هل تؤمن بالله؟"، ويُشبه ردَّ الفعل الفرنسيَّ النموذجيَّ الجواب التالي: "يا له من سؤالٍ لافتٍ للنظر! فلأفكِّر. حسنًا، لم أفكِّر في الواقع في هذا الأمر من قبل بتاتًا".

عندما أسافر إلى دول العالم أشعر كأنّي مسافرٌ بين مجتمعاتِ "الذين هجروا المسيحيَّة" ومجتمعاتِ "المنفتحين على المسيحيَّة". ويبرز الانقسام الثقافيُّ بحدَّةٍ ووضوح في الولايات المتَّحدة حيث المسيحيُّون لا يزالون قوَّةً لا يُستَهان بها. ويردُّ بعض المسيحيِّين على هذا الانقسام بإطلاق أحكامٍ قاسية على الأشخاص الذين يختلفون معهم- وهو أحد الأسباب الرئيسيَّة للسُّمعة البغيضة التي نالها الإنجيليُّون. وعندما أسمع كلماتٍ كهذه، أشعرُ بالانقباض وأُجيبُ بالصَّمت غالبًا حيالَ إيماني. كلا الطريقتَين غيرُ سليمتَين.

منح يسوع أتباعه امتيازًا كبيرًا بتقديم نعمة الله إلى عالمٍ متعطِّش. وما دمتُ أحد الأشخاص الذين شربوا حتَّى الثمالة من تلك النعمة، فإنِّي أريد أن أقدِّمها إلى عالمٍ سائرٍ دون هدى. كيف يمكننا فعلًا أن نوصِلَ الأخبار السارَّة إلى ثقافةٍ تهرب منها؟

الأخبار السارَّة مُبدَّدة

هناك قولٌ لطائفة الكويكرز (The Quakers): "العدوُّ هو مَن لم نسمع قصَّته بعدُ".[٩] لكي نتواصل مع الذين هجروا المسيحيَّة، لا بدَّ لي أوَّلًا أن أستمع إلى قصصهم لأتواصل مع الكيفيَّة التي ينظرون بها إلى العالم، وإلى أشخاصٍ مثلي. تلك الأحاديث هي التي أدَّت إلى ظهور عنوان هذا الكتاب. مع أنَّ نعمةَ الله لا تزال مدهشةً كما كانت دائمًا، فإنَّ الحاجة إليها تبدو الآن في بلدي المنقسم أكثر من أيِّ وقتٍ مضى.

سألتُ الغرباء وبعض المعارف: "لماذا يُثير المسيحيُّون مشاعر سلبيَّة كهذه؟" يذكر بعضُهم أعمالًا وحشيَّة سابقة، مثل الاعتقاد السائد على نطاقٍ واسع أنَّ الكنيسة أعدَمت ثمانية أو تسعة ملايين ساحرة (وهو رقمٌ يعتقد المؤرِّخون الجِدِّيُّون أنَّه مبالغٌ فيه بنسبة ٩٩٪). وسمعتُ شكاوى عن مدارس دينيَّة مسيحيَّة صارمة وقصصًا عن عدم تسامح رجال الدِّين- ألم يُطرَد جون لينون (John Lennon) من الكنيسة في طفولته لأنَّه ضحك في وقتٍ غير ملائم؟ ويكرِّر بعضُهم الآخر قصصًا مشابهة لقصَّة

ستيف جوبز (Steve Jobs) الذي هجر الكنيسة لأنَّه لم يكن لدى راعيها جوابٌ عن أسئلته عن الله، وعن أطفال أفريقيا الذين يتضوَّرون جوعًا. وتعبِّر الممثِّلة الكوميديَّة كاتي لادمان (Cathy Ladman) عن نظرة شائعة: "جميع الأديان متشابهة: الدِّين هو في الأساس الشعورُ بالذَّنب مع عُطَلٍ دينيَّة متعدِّدة".[١٠]

صارَتِ الأحياءُ السكنيَّة التي كانت ترحِّب بالكنائس ذات يوم، ترفع الآن دعاوى ضدَّها، ليس فقط بسبب مشكلات المرور ومواقف السيَّارات، بل "لأنَّنا لا نريد وجود كنيسة في منطقتنا!" ويصير العداء عامًّا وشائعًا عندما تتناولُ شخصيَّةٌ رياضيَّة بارزة موضوع الإيمان. منذ بضع سنوات، اجتَذب لاعبا كرة القدم الأميركيَّة تيم تيباو (Tim Tibow)، وجناح الرابطة الوطنيَّة لكرة السلة (NBA) جيريمي لين (Jeremy Lin)– ثناءَ المؤمنين بالمسيح، الذين ثمَّنوا أسلوب حياتهما النظيف ورغبتهما في مناقشة معتقداتهما. لكن في الوقت ذاته، سخرت منهما بلا رحمة المقابلات الرياضيَّة في الإذاعة ومواقع الإنترنت والمدوَّنات الإلكترونيَّة (blogs) وأصحاب برامج الحوار الكوميديَّة.

ممَّا يدعو إلى الشعور بالخجل أنَّ الكنيسة، أو جيوبٍ منها هنا وهناك، تقدِّم سببًا وجيهًا للكراهية. فمثلًا عندما أخذتُ استراحةً من كتابة هذا الفصل، أدرتُ جهازَ التلفاز على محطَّة سي. أن. أن (CNN) وشاهدت تقريرًا عن قسٍّ في ولاية كارولينا الشماليَّة (North Carolina) اقترح فيه أن نجمعَ جميع المثليِّين جنسيًّا، ذكورًا وإناثًا، داخل سياجٍ ضخم بمحيطٍ يبلغ ١٠٠ ميل (١٦٠كم)، ونُلقي الطعام إليهم من الطائرات. في نهاية المطاف سينقرضون، كما قال متباهيًا؛ لأنَّهم لن يتوالَدوا.[١١] وفي الأسبوع ذاته، أثنت رعيَّةُ كنيسة في ولاية إنديانا (Indiana) بحماسٍ شديد على طفل في السابعة من عمره رنَّم كلماتٍ من تأليفه "لن يذهبَ المثليُّون إلى السماء".[١٢] وبعد حادثة إطلاق النار في مدرسة ساندي هوك (Sandy Hook) في ولاية كونكتكت (Connecticut)، ألقى واعظٌ بارزٌ باللَّائمة على المثليِّين الذكور، وعلى أجهزة آيبود

(iPod) والتطوُّر (Evolution) وأحكام المحكمة العليا ضدَّ الصلاة في المدارس.

تلقَّيتُ منذ مدَّة وجيزة رسالةً من صديقةٍ لاأدريَّة وكانت غاضبة جدًّا من سلوك المؤمنين بالمسيح في جنازة والدتها. لقد وصَفتِ الاقتناص المبنيَّ على إثارة الخوف والدعوة إلى قبول يسوع من على منصَّة الكنيسة، وتابعَت بتهكُّم أنَّ من قام بذلك كان قسًّا من "كنيسة النعمة" أو اسم من قبيل ذلك. وأضافت: "السبب الوحيد الذي منعني من القفز فوق المقاعد الخشبيَّة والهرب من المكان هو احترام إيمان والدتي بالمسيح". وقال لها بعض الذين حضروا الجنازة: "إذا قبلَ شخصٌ واحدٌ المسيح خلال الخدمة، فإنَّ موت والدتك كان يستحقُّ كلَّ هذا العناء".

يعطينا فيلم "مخلَّص" (Saved)[١٣] لعام ٢٠٠٤م لمحةً سريعةً عن كيفيَّة نظرة الثقافة العريضة إلى المؤمنين بالمسيح. وقد أخرج الفيلمَ برايَن دانلي (Brian Dannelly)، الذي طُرِد من مدرسة ابتدائيَّة كاثوليكيَّة ومدرسة ثانويَّة معمدانيَّة عندما كان صبيًّا صغيرًا. يتنقَّلُ الفيلم ما بين الهجاء اللاذع والكوميديا المفرطة. تقود مؤمنة بالمسيح تُدعى هيلاري فاي (Hilary Faye) جوقة الترنيم، واسمها "الجواهر المسيحيَّة" (Christian Jewels). وما يحدث في الفيلم أنَّ أعضاء الجوقة يختطفون أشخاصًا رأوا أنَّهم يمكن أن يقبلوا الإيمان، ويحاولون طردَ الشياطين منهم. تتظاهر الطالبة اليهوديَّة الوحيدة في المدرسة، وهي متمرِّدة ثائرة، بالتحدُّث بالألسنة وتمزِّق قميصها وتخلعه في أثناء الخدمة الدينيَّة. ويُرسل والدا مراهق مثليٍّ جنسيًّا ابنهما إلى مركز إعادة التأهيل المسيحيّ– الذي يحمل الاسم غير الملائم "بيت الرحمة"– للالتحاق ببرنامج المعالجة لسنةٍ واحدة. في أثناء ذلك، تدرك ماري (Mary)– التي أغوَته في محاوَلةٍ لشفائه من مثليَّته، أنَّها حامل. يفضح الحبكُ الدراميُّ جميع المسيحيِّين حاسبًا إيَّاهم مرائين، بوجود هيلاري فاي في أعلى القائمة، تمامًا فوق راعي كنيستها الذي يغازلُها.

في المشهد الأخير، يهرب الشخصُ، الذي لعبَ دورَ الشخصيَّة المثليَّة، من "بيت الرحمة" وينضمُّ إلى الآخرين في غرفة ماري في المستشفى بعد أن تضعَ مولودَها.

حتَّى المراؤون الذين يُصدرون أحكامًا على الآخرين يبدأون بتليين مواقفهم. الرسالة واضحة. لماذا لا نستطيع أن نتقبَّل اختلافات بعضنا بعضًا- في المعتقدات والأخلاقيَّات والتوجهات الجنسيَّة، وكلِّ أمرٍ آخر؟ لماذا لا يمكننا جميعًا أن نعيشَ بتَفاهمٍ وانسجامٍ ببساطة بعضنا مع بعض؟

في هذه الأيَّام، يسيطر مبدأ التسامح على كلِّ شيءٍ آخر، وأيُّ دينٍ يدَّعي أنَّ لديه جزءًا من الحقِّ يصير مشبوهًا. وإذا أضَفنا إلى ذلك سمعةَ المتديِّنين بإصدار الأحكام على الآخرين وسلوكيَّاتهم، فلا عجب من أنَّ المقاوَمة تشتَدّ. وكما علَّق أحدُ النقَّاد: "يفترض معظم الناس الذين أُقابلُهم أنَّ كلمة «مؤمن بالمسيح» تعني أن يكون الشخص محافظًا جدًّا، ومتشبِّثًا برأيه، وضدَّ مثليِّي الجنس، وضدَّ حقِّ اختيار الإجهاض للحوامل، وغضوبًا وعنيفًا وغيرَ منطقيٍّ وبانيَ إمبراطوريَّات. يُريد المؤمنون بالمسيح أن يحوِّلوا الجميعَ إلى الإيمان، وهم عمومًا لا يستطيعون العيشَ بسلامٍ مع أيِّ شخصٍ لا يؤمن بما يؤمنون به".[١٤]

لم يوصِنا يسوعُ بتاتًا بأن نحوزَ الاستحسانَ في استطلاعات الرأي، لكنْ عندما أتفحَّص قائمةَ الكلمات التي يستخدمها الناس لوصف المؤمنين بالمسيح، أتساءل عن الطريقة التي يمكننا بها أن نسلك بوصفنا ملحًا ونورًا ضمن المجتمع الذي ينظر إلينا نظرةً سلبيَّةً إلى هذا الحدّ.

سامرةُ الزمن الحاضر

هل أنا أُبالغ في ردِّ فعلي؟ كنتُ أتساءل ما إذا كانت المشاعر السلبيَّة المعادية للدِّين هي ظاهرة محلِّيَّة، إلى أن قرأتُ استطلاعًا للرأي شملَ ثمانية عشر ألف شخص في ثلاث وعشرين دولة. في عام ٢٠١٠م، وضمن التحضير للمناظرة بين رئيس وزراء بريطانيا الأسبق توني بلير (Tony Blair)، والملحد الراحل كريستوفر هيتشنز (Christopher Hitchens)، أُجريَت دراسةٌ مسحيَّة بسيطة بدعم من

مؤسَّسة تورنتو (Toronto). في ما يلي نتائج الاستطلاع حول السؤال: "هل الدِّين قوَّة لأجل الخير؟"[١٥]

الدولة	النسبة المئويَّة للذين أجابوا بالموافَقة
السعوديَّة	٩٢
إندونيسيا	٩١
الهند	٦٩
الولايات المتَّحدة	٦٥
روسيا	٥٩
إيطاليا	٥٠
تركيا	٤٣
كندا	٣٦
أستراليا	٣٢
بريطانيا	٢٩
اليابان	٢٩
فرنسا	٢٤
بلجيكا	٢١
السويد	١٩

في المجموع، ٥٢٪ من المستَطلَعين قرَّروا أنَّ الدِّين يؤذي أكثر ممَّا ينفع. ومع أنَّ الاستطلاع لم يبحث السبب الكامن وراء ردودٍ كهذه، فلم أستطع إلَّا ملاحظة أنَّ الدول التي لها أطول تاريخ مع المسيحيَّة، لا سيَّما في أوروبا، باستثناءاتٍ قليلة، كان احترامها للدِّين بوصفه قوَّةً من أجل الخير هو الأقلّ. في المقابل، سجَّلت روسيا نسبةً أعلى رغم محاولات قادتها الملحدين استئصال الدِّين في القرن الماضي. لاحظتُ أيضًا أنَّ الاستطلاع لم يشمل دولًا في أفريقيا وأميركا الجنوبيَّة التي تختبر إحياءً للإيمان الدينيّ.

لا تزال الولايات المتَّحدة تُبدي احترامًا أساسيًّا للدِّين مع أنَّها كما يبدو تتَّبع اتِّجاهاتٍ أوروبيَّة. وتُظهِر الدراسات المسحيَّة صعودًا ثابتًا في فئة "اللَّادينيِّين"، وهم الآن ثلث مَن هم دون سنِّ الثلاثين، كما أنَّهم الآن فئة تفوق في عددها جميع الأسقفيِّين والمشيخيِّين والميثوديِّين واللوثريِّين مجتمعين معًا.

عندما كنتُ أتأمَّل نتائج الاستطلاع، تذكَّرتُ مقالة[١٦] كتبها تيم ستافورد (Tim Stafford) منذ بضع سنوات لمجلَّة "المسيحيَّة اليوم" (Christianity Today). قال ستافورد، مستخدمًا مقارناتٍ بأزمنة الكتاب المقدَّس، إنَّ المؤمنين بالمسيح في الولايات المتَّحدة يعتقدون أحيانًا أنَّنا نعيش في بابل، مثل لاجئين عالقين في ثقافةٍ تنادي بقيمٍ معادية لإيماننا (أفلام هوليود). في الواقع، نحن نعيش في شيءٍ أشبه ما يكون بالسامرة. في أيَّام يسوع، عاش السامريُّون على مسافة قريبة من أبناء عمومتهم اليهود. ومع أنَّه كان هناك العديدُ من القواسم المشترَكة بينهما، فإنَّ المجموعتَين لم تتمكَّنا من العيش بانسجام. وحالُهم حالُ أفراد العائلة المفتَرقين، كانوا يحملون الضغينة بعضهم لبعض. فعند اليهود، كان السامريُّون بكلِّ بساطةٍ مُهرطِقين. ويقول إنجيل يوحنَّا: "لأنَّ اليهود لا يُعاملون السامريِّين".[١٧]

من الغريب اشتعالُ شرارةِ عداءٍ قويَّةٍ ما بين جماعات أقرب ما تكون بعضها إلى بعض. كان العالم يواجه صعوبة في مجرَّد تمييز الاختلافات ما بين قبيلة الهوتو (Hutu) وقبيلة التوتسي (Tutsi) في رواندا، أو ما بين البوسنيِّين والصرب والكروات في يوغسلافيا، بل لم يعرفِ العالم هذه الجماعات حتَّى عندما كانت تتناحَر بسبب هذه الاختلافات. ونحن ننظر الآن إلى العنف في الشرق الأوسط ونحاول بصعوبة فهمَ أسباب الضغينة بين الأطراف المقتتلة. بطريقةٍ أو بأُخرى، يمكن أن يولِّد الأشخاص المتشابهون- إلى حدٍّ بعيد- كراهيةً تفوقُ كراهيةَ جماعتَين بينهما اختلافات واضحة. كان هذا هو الوضعَ في زمن يسوع المسيح. استخدمَ الفَرِّيسيُّون لإهانة يسوع تُهمًا مثل: "سامريٌّ وبك شيطان".[١٨] وعندما لم يرحِّبِ

السامريُّون بيسوع، اقترح يعقوب ويوحنَّا أن تنزل نارٌ من السماء لكي تفنيَهم.

ويقول ستافورد: "ليست المشكلة في أنَّ ديني غريب، بل المشكلة أنَّ ديني مألوف. ومثلُ السامريِّين واليهود، فإنَّ لدى المؤمنين بالمسيح وغير المؤمنين به نظرةً إلى العالم يتشاركون فيها جزئيًّا (التقاليد الغربيَّة التي تشمل الكتاب المقدَّس)، وفكرةً مشتركة عن أصلنا (المسيحيّ)‡، ونقاط خلاف واضحة المعالم (تفرُّد السيِّد المسيح). نحن نعرف ما يؤمن به كلٌّ منَّا، لكنَّنا نرتاب بعضنا في بعض؛ لذا نحملُ الضغينة كلٌّ منَّا للآخر".

أُفكِّر في أصدقائي في مجموعة القراءة، الذين يدعمون قضايا مثل حقوق الإنسان والتربية والديمقراطيَّة والرأفة تُجاه الضعيف، ومعظمها ينبع من جذورٍ مسيحيَّة. لكنَّهم ينظرون إلى المسيحيِّين حاسبين إيَّاهم تهديدًا قويًّا لتلك القضايا. وفي الوقت نفسه، ينظر المسيحيُّون المحافظون إلى العَلمانيِّين ويَرَون فيهم أيضًا تهديدًا قويًّا. إنَّهم أولئك الذين منعوا الصلوات في المدارس، وهم يستنكرون العروض الدينيَّة في عيد الميلاد. علاوةً على ذلك، فقد خانوا تراثنا المسيحيَّ بوضع تعريفٍ جديدٍ للزواج وإباحة الإجهاض، وهم يبذلون الآن جهودًا حثيثة لدعم الانتحار الطوعيِّ للمريض. وتميل كلتا الجماعتَين، العَلمانيَّة والمسيحيَّة، إلى عزل نفسهما والحكم على الأخرى دون حوارٍ أو تفاعلٍ كبير.

اختبرتُ شخصيًّا المشاعر الكامنة وراء الحروب الثقافيَّة عندما نشرتُ اقتباسًا عن الراحل آندي روني (Andy Roney) على صفحتي في فيسبوك. قال روني: "لقد قرَّرتُ أن أكون ضدَّ الإجهاض. أعتقد أنَّه عمليَّة قتل، لكنِّي أُواجه مُعضِلة؛ لأنِّي أفضِّل أكثرَ بكثير المدافعين عن حقِّ الاختيار [المنادين بحقِّ الإجهاض] على المدافعين عن حقِّ الحياة [المنادين بمنع الإجهاض]. أنا أفضِّل تناول العشاء مع المجموعة الأولى".[١٩]

‡ تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ المؤلِّف استخدم الكلمة الإنكليزيَّة (Christendom) والتي تحمل معنى المسيحيَّة بوصفها نظامًا مؤسَّسيًّا، وليس الكلمة الإنكليزيَّة (Christianity) والتي تعبِّر عن المسيحيَّة بوصفها إيمانًا ومعتقداتٍ جوهريَّة (الناشر).

اندَلَعت عاصفةٌ معتدلة عندما نشرَ المتابعون تعليقاتهم على صفحتي. حيث هاجمَ بعضُهم روني بقوَّة وقالوا إنَّه ليس سوى شخصيَّةٍ تلفزيونيَّة مشهورة، وهو لا يتمتَّع بأيَّة مصداقيَّة. ودافع آخرون عن المتطوِّعين المدافعين عن حقِّ الحياة، وأجروا مقارنةً بينهم وبين المجموعة الأُخرى البغيضة. كتبَتْ إحدى النساء: "ما الفكرة التي تحاول أن تقدِّمها هنا؟ أتريد أن تقول إنَّك، مثل روني، تجدُ في صحبة مَن يؤيِّدون قتلَ الأبرياء متعةً سطحيَّة أكثر ممَّا تجدُه في صحبة المؤمنين بحماية هؤلاء الأطفال؟ يا لك من إنسانٍ جسديّ... إنَّ ما كتَبتَه يُثير اشمئزازي".

بالمختَصَر، أكَّدتْ ردودُ الفعل تلك على فكرة آندي روني. هل أرغب في تناوُل العشاء مع قاذفي اللهب الذين نشروا تعليقاتهم على صفحتي؟ أجبتُ- وهنا موضوعٌ يتكرَّر في هذا الكتاب- إنَّ المسألة ليست ما إذا كنتُ أتَّفق مع رأي شخصٍ ما، بل في كيفيَّة تعامُلي مع شخصٍ ما أختلفُ معه اختلافًا عميقًا. نحن المسيحيِّين مدعوُّون إلى استخدام "أسلحة النعمة"، ويعني هذا معاملةَ، حتَّى الذين يعارضوننا بمحبَّة واحترام.

إنَّ يسوعَ يُرينا الطريق. وعندما سخر به الفَرِّيسيُّون قائلين له: "سامريٌّ وبك شيطان"، نفى يسوعُ تهمةَ أنَّ به شيطان، لكنَّه لم يحتَجَّ على الإهانة العنصريَّة. ووبَّخ التلاميذ لدعوتهم إلى العنف ضدَّ السامريِّين. وعلى نحوٍ متميِّز وواضح، جعل من أحد السامريِّين بطلًا لأحد أروَع أمثاله (السامريُّ الصالح). كما أنَّه قامَ بجهدٍ خاصٍّ ليزورَ قريةً سامريَّة، وأوصى تلاميذَه (وهُم يهود) أن يأخذوا بشارةَ الإنجيل إلى قرى أخرى مثل تلك القرية السامريَّة.

في نهاية المطاف، فهم التلاميذ مرادَه؛ فعندما صارَ السامريُّون أتباعًا للمسيح "بفرحٍ كبير"[٢٠] بعد صعودِ يسوع إلى السماء، قبلوا الروح القدس بواسطة خدمة بطرس ويوحنَّا، دون أن ننسى أنَّ يوحنَّا نفسَه طلب ذاتَ مرَّةٍ نزولَ نارٍ من السماء لتفنيَهم.

علامات العطش

إنَّ بعضَ الذين يرفضون الإيمان ويزدرون به، يُعلِنون بفخرٍ إلحادَهم حاسبين إيَّاه رمزًا للتَّحدِّي (علَّق الكاتب الألماني هينريش بول [Heinrich Böll] قائلًا: "إنِّي لا أُحبُّ هؤلاء الملحدين؛ فَهُم يتكلَّمون دائمًا عن الله").[٢١] وينبذ آخرون الإيمان بتوقٍ أكبرَ، أو ربَّما يبحثون عن بدائل في بدعة "العصر الجديد" (New Age) أو في أديانٍ أُخرى.

وتُظهرُ الدراسات المسحيَّة ذاتها- التي تتقصَّى صعود "اللَّادينيِّين"- أنَّ أقليَّة منهم فقط تدَّعي أنَّها مُلحدة. لا يزال العديد منهم يقولون إنَّهم متديِّنون رغم أنَّهم لم يجدوا بيتًا روحيًّا. حاولتُ أن أستمعَ إلى غير الملتزمين، لا بصفةِ خصوم، بل بوصفهم أشخاصًا يسعَون ولا يزالون يبحثون. لماذا هجروا الكنيسة وربَّما الإيمان؟ ما الذي يمكننا أن نتعلَّمه منهم؟ وكيف نستطيع أن ندعوَهم إلى العودة؟ هل يمكنُ للأخبار السارَّة التي فسَدَت في ما مضى، أن تبدو يومًا ما سارَّة مرَّة أُخرى؟

أتى يسوع "من الآب مملوءًا نعمةً وحقًّا"، كما كتب يوحنَّا في مقدِّمة إنجيله.[٢٢] وعملَتِ الكنيسةُ بلا كللٍ أو مَلَل لتحقيق الجزء المتعلِّق بالحقِّ من تلك المعادلة: شهادة مجامع الكنيسة، وعقائد الإيمان، ومجلَّدات اللَّاهوت، والانقسامات الطائفيَّة حول نقاط العقيدة الثانويَّة. أتوقُ لأنْ تبذلَ الكنيسةُ الجهدَ نفسَه لتوصِل إلى الآخرين ما يدعوه بولس "غنى نعمة الله الفائق".[٢٣] في الغالب، يبدو أنَّه يُنظَر إلينا بوصفنا موزِّعي الشعور بالذنب بدلًا من مقدِّمي النعمة.

يُسجِّل يوحنَّا لقاءً عن قُربٍ بين يسوع المسيح وامرأة سامريَّة.[٢٤] لعلم السامريَّةِ بالكراهية ما بين "اليهود والسامريِّين"، تعجَّبت أن يتحدَّث إليها معلِّم يهوديّ. في مرحلةٍ ما من الحوار، أُثيرَتْ إحدى نقاط العقيدة المتنازَع عليها: مَنْ لديه مكان العبادة الصحيح: اليهود أم السامريُّون؟ تفادى يسوع ببراعة من السؤال، وتابع التركيزَ على قضيَّة أهمَّ بكثير: عطشِها غير المرويّ. فهو لم يَدِنْها، بل قدَّمَ إليها حلًّا دائمًا لشعورها بالذَّنب بسبب حياتها المضطربة. صرَّحَ لها- ولها فقط- عَلَنًا أنَّه المسيَّا،

واختارها لكي تقدِّم النعمة. استرعى تغيُّرها انتباهَ البلدة كلِّها، وظلَّ يسوعُ مدَّة يومَين بين "المهرطقين"، وجذبَ الكثيرين ممَّن قبلوا الإيمان.

أُثيرَ ذلك المشهد ليسوع والمرأة السامريَّة خلال يومٍ أمضَيتُه برفقة المؤلِّف هنري نووين (Henri Nouwen) في منزله في مدينة تورونتو (Toronto). كان قد عاد لتوِّه من سان فرنسيسكو حيث أمضى أسبوعًا في عيادةٍ لمرضى الإيدز (AIDS) زار خلاله المرضى الذين كانوا يواجهون الموت المحتَّم والأليم قبل اكتشاف العقاقير المثبِّطة لڤيروسات الإيدز. قال لي: "أنا كاهن، وجزءٌ من عملي هو الاستماع إلى قصص الناس. لذا سرتُ في الجناح ذهابًا وإيابًا عارضًا على المرضى- ومعظمهم من الشباب- ما إذا أرادوا أن يتحدَّثوا".[٢٥]

تابعَ نووين حديثه قائلًا إنَّ صلواته تغيَّرتْ بعد ذلك الأسبوع. فبينما كان يستمع إلى قصص العلاقات الجنسيَّة المتعدِّدة والإدمان والسلوك المدمِّر للذَّات، سمع تلميحات عن التعطُّش إلى المحبَّة لم يُروَ بتاتًا. ومنذ ذلك الحين كان يصلِّي، "ساعدني يا الله أن أرى الآخرين لا بصفة أعدائي ولا بصفتهم آثمين، بل بصفتهم أناسًا عطشى. وامنحني الشجاعة والرحمة لأقدِّم إليهم ماءك الحيَّ القادر وحدَه على إرواء العطش العميق".

لازمتني ذكرى ذلك اليوم مع الكاهن اللطيف. والآن، عندما أُقابل المشكِّكين الصاخبين الذين يستهزئون بمعتقداتي؛ أو الأشخاصَ الذين أجدُ سلوكهم مؤذيًا للمشاعر، أُذكِّر نفسي بصلاة هنري نووين. أسأل الله أن يمنعَني من إصدار الأحكام السريعة، أو من التصرُّف بغضبٍ دفاعًا عن نفسي. أنا أُصلِّي هكذا: اجعلني أراهم بصفتهم أشخاصًا عطشى، وعلِّمني أفضل السُّبُل لتقديم الماء الحيّ.

كتب غراهام غرين (Graham Greene) رواية "قضيَّة مُستنزَفة" (A Burnt-out Case) مع إيحاءات تُشير إلى السيرة الذاتيَّة لمهندس كنائس معماريٍّ مشهور، الذي وصل إلى خلاصة مفادُها أنَّ المصلِّين قد دنَّسوا تصاميم الكنائس التي أنجزها.

وعندما لم يعد يجد هذا المهندس أيَّ معنى في الفنِّ أو المتعة؛ ولكونه كان غاية في الانزعاج بسبب انتحار حبيبته، سافرَ قاصدًا مستشفى لمعالجة مرضى البرص في الكونغو يُديرها مُرسَلون كاثوليكيُّون، وهناك اكتسب طاقةً جديدة بإشرافه على بناء مستشفى للبُرص.

وفي أثناء ذلك، اختفى خادم المهندس، ويُدعى ديو غراتياس (Deo Gratias)§ في الأدغال. وفي مشهدٍ مؤثِّر، يجول المهندس في الدغل وهو يُنادي خادمَه القصير البدين والأبرص: "ديو غراتياس، ديو غراتياس..."[٢٦].

كان يصرخُ حرفيًّا لنَيل نعمة الله. ونقوم نحن جميعًا بهذا بصورةٍ ما وبأشكال مختلفة. فسواءٌ كنَّا مؤمنين بالمسيح أم منفتحين على المسيحيَّة، أم سبقَ وهجرنا المسيحيَّة، فكلُّنا عَطْشى.

§ اسم الخادم في الإسپانيَّة قريبٌ جدًّا من معنى "نعمة الله" (الناشر).